طلقة (٦)

(الشاذلي الملحق العسكري في لندن)

الأبطال يدفعون الثمن

لا يعترف الفريق سعد الدين الشاذلي بالإنسان الكامل.. فهو يستطيع كما يرى المزايا أن يكتشف العيوب وغالبا ما يبدأ ذلك مع نفسه.. وقد يأتي هنا السؤال كيف كان الشاذلي قريبا من جمال عبدالناصر.. ومع ذلك لم يظهر بين الضابط الأحرار بعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ وكان من بينهم؟ واذا كانت السرية قد فرضت عليه ذلك فلماذا لم يتم تصعيده ومنحه المناصب مثل غيره !

من يسأل هذا السؤال حتما لا يعرف طبيعة الفريق الشاذلي الذي لا يحب أن يزاحم غيره على منصب أو موقع.. لكن يجب أن يأتيه هذا المنصب إلى حيث يكون.. ومن يقرأ سيرته جيدا سيدرك هذا وكم كلفه الكبرياء الكثير إلى حد المبالغة ولكن هذا هو قدر الأبطال بل انهم أحيانا من يدفعون الثمن لأنهم رفضوا الاستسلام لمنطق الخضوع للأمر الواقع وآمنوا بان النصر لا يتحقق ألا بالاعتراف المر بالهزائم، لكن للسياسة حساباتها التي تصطدم بالعسكرية وأنا لا أريد أن اكشف أوراق القصة المثيرة مبكرا لأنها تمثل الذروة الدرامية في رواية الكبرياء وبطلها الشاذلي لكننا لن نبتعد عنها كثيرا...

وفي الأشهر القليلة قبل الثورة مباشرة كان الضابط الشاب سعد الشاذلي منتظما في دورة دراسية لأركان الحرب وكان الضابط (معروف الخضري) مسؤول الخلية التي تضم الشاذلي مع الضباط الأحرار.. يعرف هذا وبالتالي لم يكلفه بشيء لعمله بانشغاله بتلك الدورة التي تحتاج إلى تفرغ وهي هامة جدا في الميدان العسكري.

ويكتشف الشاذلي كيف أن جمال عبدالناصر كان هو قائد الثورة ومحركها الأول بعكس ما قيل عن استخدامه للقائد محمد نجيب كستار ثم الانقلاب عليه ولك أن تسمع القصة من أنور السادات كما رواها في حلقات نشرتها الجمهورية وقت أن كان هو مديرها العام الأول: في عام ١٩٥٠ كنا قد اكتملنا من حيث التنظيم الداخلي والخلايا والمخابرات وبدأنا نفكر في تحديد ميعاد الثورة.. وقررنا أن أمامنا خمس سنوات على الأقل لكي تكتمل قوتنا وبما يجعلنا كضباط أحرار

نستطيع أن نتغلب على الملك والاستعمار لكن السياسة لا تستقر على حال.. ولذلك عدلنا الفترة الزمنية إلى ثلاث سنوات والسبب في ذلك ما جرى من حزب الوفد وقد كانت الحسابات تعول عليه دورا كبيرا لكنه هادن القصر مما تحول إلى صدمة لدى الشعب.

ويعترف السادات بأنه كان يتحرك بصعوبة بعد خروجه من السجن على اثر قضية مقتل أمين عثمان وفي عام١٩٥١ تم نقل صلاح سالم وعبدالحكيم عامر والسادات إلى سيناء وجمال سالم إلى العريش وكان لابد للبحث عن رئيس يجمع شتات الضباط وقد تفرقت بهم السبل على هذا النحو وبالاجماع تم انتخاب جمال عبدالناصر وفي الاجتماع نفسه تقرر اختيار اللواء أركان حرب محمد نجيب قائدا للحركة يوم تنفيذها فهو من كبار الضباط وشخصية محبوبة.. ولكن هذا القرار ظل سرا لا يعرفه اللواء نجيب.. وكان عبدالحكيم عامر هو الذي عمل معه ورأينا أن يكون هو همزة الوصل بينه وبين البكباشي جمال عبدالناصر بعد عودته من الفالوجا وكان عبدالحكيم أيضا قد تم تكليفه بعمل ما يسمى تقرير حالة أو تقرير موقف وقد جاء فيه أن الحركة تستطيع أن تنفذ مخططه في أول فرصة تحين لها.

وكان جمال قد قام بجولة داخل العديد من وحدات الجيش للوقوف بنفسه على ما يحدث وفي نفس الوقت جرت اتصالات مع الوفدي الكبير فؤاد سراج الدين وجاءت انتخابات نادي الضباط لتكون أول اختبار لتحركات الضابط الأحرار واستشعر القصر بذلك فأعلن تأجيل الانتخابات حتى ضغطت الحركة ونجحت.

وقد أكد الفريق الشاذلي في أحاديث عدة أن جمال عبدالناصر هو العقل المدبر للثورة قولا وفعلا.. لذلك أعلن عن تأييده للثورة.. وكان طبيعيا أن يعرض جمال بعد أشهر قليلة من الثورة على الفريق الشاذلي أن ينضم إلى جهاز المخابرات بعد اعادة تنظيمه لكنه طبقا لشهادته ثم شهادة زوجته فيما بعد السيدة زينات السحيمي اعتذر عن قبول العرض مفضلا الاستمرار في الخدمة داخل القوات المسلحة

وهنا يوضح الكاتب مصطفى عبيد ويفسر هذا الأمر في كتابه (العسكري الأبيض) فيقول:

جهاز المخابرات كان قائما في مصر تحت مسميات أخرى لكنه لم يتحول إلى جهاز حقيقي مهمته الدفاع عن الأمن القومي الا بعد الثورة ومن الثابت تاريخيا أن عبدالناصر أوكل مهمة انشاء الجهاز لزكريا محيي الدين وفيما بعد شهد الجهاز نهضة كبيرة خلال عهد صلاح نصر الذي حقق من خلاله كثيرا من العمليات الناجحة قبل أن يقال ويقدم للمحاكمة بتهمة الانحراف بعد نكسة يونيو ١٩٦٧ .

ولا شك أن ذلك يدفعنا إلى الاستنتاج أن قرار الشاذلي بالاعتذار عن العمل في ذلك الجهاز لان طبيعة الشاذلي نفسه طبيعة أخلاقية أقرب إلى التدين والالتزام ولا تتوافق مع أفكار ومبادئ الاستغلال والتجسس والوشاية وانتهاك حقوق الانسان.

كان الشاذلي عاشقا للحياة العسكرية ومحباً للعلوم البحرية وكان يرى انه يمكن أن يقدم خدمات جليلة للوطن من خلال القوات المسلحة لذا كان عبدالناصر حريصا على تكريمه وتقديره ومساندته داخل الجيش المصري الذي بدأت شهرته وقدراته تتسع بعد نجاح مجلس قيادة الثورة في امتلاك جميع شؤون الحكم بعد أزمة مارس الشهيرة في عام ١٩٥٤.

ولنا هنا وقفة مهمة بطلها الدكتور ثروت عكاشة أحد الضباط الأحرار من سلاح الفرسان ورائد الثقافة المصرية في مستهل الثورة حيث يرشدنا إلى كتاب (قائد البانزر) للألماني الجنرال هاينز جوديريان وهو من أبرز القادة واحد صانعي التاريخ العسكري من خلال فكره المبتكر في استخدام المدرعات وسنجد أن الشاذلي كما لو كان قرأ الكتاب وحفظه حيث يقول الجنرال أن أفضل المزايا التي تخلق القائد العظيم العسكري أولها دقة الملاحظة وعمق التحليل وسرعة الرد والثقة بالنفس والقدرة على مفاجأة الخصم وابقائه في حالة اضطراب تنتهي به إلى الشلل هذا إلى جانب قدرته على تعميق المودة بينه وبين جنده وتحريك أعجابهم والتأثير فيهم بما يحفزهم لبذل

أقصى جهد ممكن ويذكر د. عكاشة أن الجنرال الألماني كان شديد البراعة في التحايل على جعل المستحيل ممكنا اذا كان واسع الخيال في الافادة مما لديه من معدات بادخال تحسينات على بعض الأسلحة أو تطويرها والاسراع بتجربة ابتكاره وهو الأمر الذي لم يقدم عليه قائد عسكري من قبل اذا كان ذلك متروكا للأخصائيين المدنيين والعسكريين وأنا أتمنى من القارئ الكريم أن يحتفظ بتلك الأسطر في ذاكرته لكي يعرف عندما نصل إلى رئاسة الشاذلي لأركان حرب الجيش المصري كيف انطبقت عليه كافة شروط الجنرال الألماني بل وزادت.

ويضيف عكاشة، وبندر أن تجد في التاريخ مبتدع فكرة تسنح له الفرصة كي يضع نظريته موضع التنفيذ والتطبيق ولقد كان لجوديريان من القدرة على التخيل الانشائي والطاقة الديناميكية والجسارة في استغلال الفرص التي تسمح له ما هيأ له أن يخرج على العالم بنتائج فورية في فن الحرب وما أثار دهشتي أن وجدت بين ثنايا الكتاب اسم الجنرال مونزل يتكرر في أكثر من موضع مرتبط بالثناء عليه من قائده الأعلى فزادني هذا اعجابا به وعدت استفسر منه تفصيل ما ذكر في الكتاب عنه مجملا واذا بي أجدني مسوقا إلى ترجمة هذا الكتاب إلى العربية بعد أن وجدت فيه من الدروس ما ينبغي أن يفيد منه كل مقاتل في قواتنا المدرعة وقدمته إلى القوات المسلحة التي تولت طبعه ونشره وظهرت طبعته الأولى عام ١٩٦٠ في جزأين ضخمين مزودين بالخرائط بعنوان (قائد البانزر).

وكنت قد قرأت فيما مضى شيئا عن القائد المغولي (جنكيز خان) مما كتب في العربية لابن الأثير وابن الفرات ومحمد بن القسوي ثم علاء الدين الحويني وعبدالله بن فضل الله ولقد كان يحوز بعضهم حديث لا يعرفونه ويملي على بعضهم الآخر ويحملونه فأصابوا في شيء وأخطأوا في أشياء وفي ظل هذه البحوث الإسلامية نشأت محاولات غريبة ما أشك في أن هذا التراث الشرقي كان مادتها الأساسية فكانت بعض هذه المحاولات ترجمة لما كتب في العربية وبعضها تأليفا

استعين فيه بتلك المادة العربية ورأيت في جنكيزخان صورة من القوة العارمة التي لا تأبه للشدائد والعنف الصاخب الذي يستهين بالمصاعب.

مصري خالص

ان تجتمع الثقافة مع روح الانضباط بالأخلاقيات تكون النتيجة دائما قيادة رشيدة وطنية عرفنا عن جمال عبدالناصر انه العاشق للقراءة وقد كانت له محاولات عديدة في الكتابة الأدبية والسياسية معها قصة (ثمن الحرية) وكتاب (فلسفة الثورة) وكان السادات فصيحا وخطيبا وتولى ادارة مؤسسة دار التحرير (الجمهورية) وله أكثر من كتاب والفريق الشاذلي كان حريصا في مستهل حياته أن يقرأ كل ما يكتبه احمد حسين في مصر الفتاة وكذلك كتابات احسان عبدالقدوس والى جانب ذلك درس الكثير من العلوم العسكرية في أميركا والاتحاد السوفييتي وكان حريصا على متابعة كل مستجدات العلوم العسكرية وله عدة مؤلفات وختم القرآن الكريم مرات عدة في سجنه الذي فرضه عليه الرئيس السابق مبارك.. وهو أول قائد كان يتواصل مع جنوده بشكل مباشر فلما اتسعت الدائرة وشملت الجيش المصري كله بعد أن تولى رئاسة الأركان كان يصدر تباعا كتيبات يخاطب فيها رجال الجيش من ضباط وجنود أولا بأول ومازال بعضهم يحتفظ بتلك الكتيبات التي كان لها ابلغ الأثر في رفع الروح المعنوية والعبور من إحباط الهزيمة إلى آفاق النصر.

والآن نسأل كيف لقائد أن ينفتح على المدرسة الأميركية العسكرية ثم المدرسة السوفيتية وهي على النقيض منها ثم يرتد إلى بلاده مصريا خالصا!!

خارج السياق :

بطل فلسطين :

بطل فلسطين هو القائد أحمد عبدالعزيز المولود في ٢٩ يوليو ١٩٠٧(١٨ جمادي ثاني ١٣٢٥ هجرية) واستشهد عن طريق الخطأ برصاص مصري فعندما كان في طريقه بصحبة اليوزباشي صلاح سالم (أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة في مصر فيما بعد) إلى القيادة المصرية في المجدل ليلة ٢٢ أغسطس ١٩٨٤م (الموافق ١٦ من شوال ١٣٦٧هـ) ووصل بالقرب من مواقع الجيش المصري في الفالوجة أطلق أحد الحراس (واسمه العريف بكر الصعيدي) النار على سيارة الجيب التي كان يستقلها أحمد عبدالعزيز بعد اشتباهه في أمرها فأصابت الرصاصة صدر القائد البطل الذي ما لبث بعدها أن لفظ أنفاسه الأخيرة وأسلم الروح شهيداً.

يقال انه قد تم نقل جثمانه إلى بيت لحم حيث دفن في مقبرة قبة راحيل شمال المدينة حيث أقيم نصب تذكاري له عرفانا لما قدم على أرض فلسطين وشاهد على جهاده ونضاله المشرف وهناك رواية مختلفة بأنه قد دفن في غزة ومن المرجح أن الحكومة نقلت رفاته مع أخوته من الشهداء المصريين إلى مصر لاحقا.

لتقديم لمحة موجزة عن البطل للأجيال التي لا تعرف من كان هذا القائد الذي روى بدمائه الزكية تراب فلسطين وقدر الله له أن تصعد روحه الطاهرة إلى بارئها على أرض الفالوجة الحبيبة انه بطل معارك العريش وخان يونس ورامات راحيل وغيرها من مواقع الشرف والبطولة الذي سطر اسمه بأحرف من نور تفوح وتضوع عطرا ومسكا في سجل الخلود ولد في مدينة الخرطوم بالسودان حيث كان والده الأميرالاي (العميد) محمد عبدالعزيز في مهمة عسكرية كقائد للكتيبة الثامنة بالسودان عاد بعدها إلى مصر.

وقد عرف عن البطل أحمد عبدالعزيز الحس الوطني والرجولة المبكرة منذ صغره فقد اشترك وهو لم يزل بعد في الثانية عشرة من عمره في ثورة ١٩١٩، وفي العام ١٩٢٣ دخل السجن بتهمة قتل ضابط انكليزي ثم أفرج عنه وتم إبعاده إلى المنصورة.

التحق البطل بالمدرسة الحربية وتخرج منها وصار لاحقا ضابطا متميزا بسلاح الفرسان المالكي لكي يصبح بجدارة آنذاك احد المع الطيارين المصريين ودرس التاريخ الحربي في الكلية الحربية كما أن القائد الشهيد كان كاتبا في العلوم العسكرية والسياسة ومن أعماله:

رسالة عسكرية بين السياسة والحرب.

وكتاب النجاة من الموت في البحار والغابات والصحارى.

بالاشتراك مع صديق عمره ورفيق سلاحه عبدالرحمن زكي رحمهما الله جميعا.

وحينما صدر قرار تقسيم فلسطين عام ١٩٤٧، كان البطل (أحمد عبدالعزيز) هو أول ضابط مصري يطلب بنفسه احالته للاستيداع، هكذا تخلى عن رتبته وامتيازاته من أجل الجهاد في سبيل الله على أرض فلسطين; ليشكل كتائب المجاهدين المتطوعين الفدائيين لانقاذ فلسطين من أيدي اليهود. ويصبح قائدا لما يعرف بالقوات الخفيفة في حرب فلسطين.

فتولى تدريب أولئك المجاهدين واعدادهم وتسليحهم على ما أمدّته به قيادة الجيش من مدافع خفيفة وأسلحة وبقدر من الذخائر بعد أن ألح في طلب ذلك، واتخذ كل وسيلة لاقناع المسؤولين بأهمية تزويد المتطوعين بالسلاح، كما اعتمد على ما جمعه من المتطوعين من الأسلحة التي خلّفتها الحرب العالمية الثانية؛ فأصلح ما يُمكن اصلاحه منها.

إليكم بعض كلماته التي كان يحفز بها المجاهدين:

* أيها المتطوعون، أن حربا هذه أهدافها لهي الحرب المقدسة، وهي الجهاد الصحيح الذي يفتح أمامنا الجنة، ويضع على هاماتنا أكاليل المجد والشرف؛ فلنقاتل العدو بعزيمة المجاهدين، ولنخشَ غضب الله وحكم التاريخ اذا نحن قصرنا في أمانة هذا الجهاد العظيم....

وكان له رأي مغاير حيال دخول الجيش المصري الحرب، على أساس أن قتال اليهود يجب أن تقوم به كتائب الفدائيين والمتطوعين، لان دخول الجيوش النظامية يعطي اليهود فرصة كبرى في إعلان أنفسهم كدولة ذات قوة تدفع بالجيوش العربية إلى مواجهتها؛ إلا أن معارضته لم تمنعه من القتال بمعية الجيوش النظامية.

البطل المقتحم :

وبرغم صغر حجم قواته، وانخفاض مستواها من حيث التسليح والتدريب مقارنة باليهود، إلا أن البطل اقتحم بهم أرض فلسطين، ودارت بين الجانبين معارك حامية الوطيس، بداية من معركة مدينة العريش، مرورا بمعركة خان يونس. وكان يساعده في قيادة هذه الكتائب كل من اليوزباشي النقيب كمال الدين حسين عضو قيادة مجلس الثورة في مصر لاحقا واليوزباشي عبدالعزيز حماد.

وبرغم مماطلة المسؤولين في القاهرة في ارسال أسلحة للمتطوعين، الا أن قوات الفدائيين بقيادة البطل حققت انتصارات مذهلة على اليهود، فقطعت الكثير من خطوط اتصالاتهم وامداداتهم، وساهمت في الحفاظ على مساحات واسعة من أرض فلسطين، ودخلت مدينة القدس الشريف ورفعت العلم الفلسطيني والعلم المصري جنبا إلى جنب.

وأعاد بعد ذلك رسم الخرائط العسكرية للمواقع فى ضوء الوجود اليهودي، ما سهل من مهمة القوات النظامية العربية التي دخلت فيما بعد في حرب ١٩٤٨.

حين وصل البطل أحمد عبدالعزيز إلى بيت لحم، حتى بدأ باستكشاف الخطوط الدفاعية للعدو التي تمتد من تل بيوت ورمات راحيل في الجهة الشرقية الجنوبية للقدس، ليس بعيدا كثيرا عن قبة راحيل في مدخل بيت لحم الشمالي، حتى مستعمرات بيت هكيرم وشخونات هبوعاليم وبيت فيجان ويفنوف ونشر قواته مقابلها.

والتحق به منضويا تحت امرته القائد الأردني البطل عبدالله التل بما معه من قوات الجيش الأردني. بمعية هؤلاء الرجال خاض معركة رمات راحيل. حيث كانت مستعمرة رمات راحيل تشكل خطورة نظرا لموقعها الاستراتيجي المهم على طريق قرية صور باهر وطريق القدس - بيت لحم، لذا قرر أحمد عبدالعزيز احتلال المستعمرة وقاد هجوما عليها يوم الاثنين ٢٤/ ٥/ ١٩٤٨م، بمشاركة عدد من الجنود والضباط من قوات الجيش الأردني. بدأ الهجوم بقصف المدافع المصرية للمستعمرة، بعدها زحف المشاة يتقدمهم حاملو الألغام الذين دمروا أغلب الأهداف المحددة لهم. ولم يبق الا منزل واحد احتمى فيه مستوطنو المستعمرة. وحين انتشر خبر انتصار أحمد عبدالعزيز، بدأ السكان يفدون إلى منطقة القتال لجني الغنائم، والتفت العدو للمقاتلين، وذهبت جهود أحمد عبدالعزيز في اقناع الجنود بمواصلة المعركة واحتلال المستعمرة أدراج الرياح، وأصبح هدف الجميع ارسال الغنائم إلى المؤخرة. ووجد أحمد عبدالعزيز نفسه في الميدان وحيدا الا من بعض مساعديه - ممن لم يبدلوا تبديلا. وتغيرت نتيجة المعركة.

وقادت العصابات الصهيونية هجوما في الليل على أحمد عبدالعزيز ومساعديه الذين بقوا، وكان النصر فيه حليف الصهاينة، والمؤرخون يقارنون بين هذا الموقف وموقف الرسول - صلى الله عليه وسلم - حين سارع الرماة إلى الغنائم وخالفوا أوامره في معركة أحد وتحول النصر إلى الهزيمة.

بعدما قبل العرب الهدنة في عام ١٩٤٨، نشط اليهود في جمع الذخيرة والأموال وقاموا باحتلال قرية العسلوج التي كانت مستودع الذخيرة الذي يمون المنطقة، احتلالها كان يعني قطع مواصلات الجيش المصري في الجهة الشرقية ومع فشل محاولات الجيش المصري استرداد هذه القرية استنجدوا بالبطل أحمد عبدالعزيز وقواته التي تمكنت من دخول هذه القرية والاستيلاء عليها.

حينما حاول اليهود احتلال مرتفعات جبل المكبر المطل على القدس، وكان

هذا المرتفع احدى حلقات الدفاع التي تتولاها قوات أحمد عبدالعزيز المرابطة في قرية صور باهر، قامت هذه القوات برد اليهود على أدبارهم وكبدتهم خسائر كثيرة، واضطرتهم إلى الهرب واللجوء إلى المناطق التي يتواجد فيها مراقبو الهدنة ورجال هيئة الأمم المتحدة.

هذه ومضات من تاريخ نوراني لرجل نذر نفسه للكفاح فوهبه الله الخلود بين حنايا الشهادة والبطولة.

obeikandl.com